نشر : 2011/09/12 الساعة (GMT +3)10:33 pm

جمال القيسي

عمان -الإصدار الأول للمبدع هو إعلان عن هويته، وشارة بدء لمشروعه الإبداعي الذي سيراكم عليه، وهو بمثابة المولود البكر الذي له في النفس الوقع الجميل والمؤثر، والذي يختلف ألقا عن باقي الأحداث الأخرى -على أهميتها - في حياته.

المفترض أن المبدع عليه ان يبذل قصارى جهده، وأن يسكب سهر ليله، ليكون الإصدارُ الاول على سوية عالية، تلفت الانظار وتميل الرؤوس، تجاه عمله الذي هو فاتحة الكتاب، والخطوة الاولى على درب الادب الطويلة، وفي عالم لا يسقط اي اصدار، وانما يراكمه كتأريخ لصاحبه؛ يحاسبه إن تلكأ عن المستوى ولو قليلا.

كثيرون هم المبدعون الذين تأنوا في النشر، وكثيرون هم الذين اصدروا عملا اولا وصمتوا سنوات من بعدها، ليعودوا اشد عريكة، واعتى مراسا، فقد صمت قيصر الرواية العربية نجيب محفوظ بعد "عبث الأقدار" العام 1940 حتى اصدر رائعته الثلاثية في العام 1956.

على جانب آخر فإن الاستعجال بالنشر قد يودي بصاحبه الى التنصل والتهرب أو حتى التبرؤ من بواكير أعماله؛ على نحو ما قيل من تبرؤ الراحل الكبير محمود درويش من ديوانه الأول، وعلى نحو ما يسقطه بعض القصاصين من قصصهم الاولى عند طباعة اعمالهم الكاملة.

الدكتورة بسمة الدجاني تصف الاصدار الأول بأنه "كالمولود الأول للأم وبفرحته الغامرة التي تملأ كيانها" حيث يشعر المبدع بصدور إنتاجه الأول، "كلاهما

يمثل مرحلة تحقيق الوجود الخاصة بصاحبها، المولود ينقل والدته من عالم الأنا إلى عالم الآخر مع تزايد الإحساس بروعة الملكية الفكرية وقيمة الذات، والإنتاج الأول يجسد شخصية صاحبه في عالم الفن، ويسجل حروف اسمه بين المبدعين."

وتضيف "إنها اللحظة الممتدة التي سبقتها شهور من الإعداد والإرهاق الفكري، وصاحبها يعمل بهمة مركزاً على إنجاز هذا الأمر، مستشعراً قيمة ما يقوم به، وانعكاسه على حياته المقبلة. وفي أي صورة يخرج بها هذا الإنتاج الأول، تكون أهميته كبيرة لذاته، ويكون بادرة ليتقدم من خلالها صاحبه خطوات إلى الأمام بثقة وبوعي وبنضج، ويظهر ذلك بوضوح على إنتاجه التالي."

وتلفت الى أنه ما بين إصدار نجيب محفوظ لروايته الأولى "عبث الأقدار" العام 1940 تقريباً وثلاثيته الإبداعية في أول أجزائها "بين القصرين" العام 1956 "تقدم فني واضح المعالم.

كذلك الأم تتعامل مع مواليدها الثاني فالتالي بأريحية أكبر من تجربتها الأولى."
وتعتبر أنه في أغلب الأحيان، يحرص الكاتب في إصداره الإبداعي الأول "أن يأتي بالجديد معتمدا على أبحاث رصينة تنطوي على تكلفة عالية من حيث الوقت والجهد والمال (والمال بمفهومه الواسع والشامل هو كل ما تميل إليه النفس). فالمبدع يكابد ويمتنع عما تميل إليه نفسه من أجل أن يضع مولوده الأول في أحسن حلة ليتبوأ مكانته بين المبدعين في عالمه العربي والإنساني."
وتشير الى تجربة الراحل الكبير أحمد صدقي الدجاني في كتابه الأول عن تاريخ الحركة السنوسية التي "تضمنت بحثا حثيثا من وثائق من مكتبات إسطنبول ولندن وباريس من جهة "مبينة أنه من جهة أخرى انطوى الكتاب على "ملامح أساسية من مشروع الراحل الفكري بأركانه السبعة: التحرير، والتجدد الحضاري، والديمقراطية والشورى، والعدل، والتنمية المستدامة المتصاعدة، والمساواة، والوحدة."

كما يرى القاص والروائي الدكتور عصام سليمان الموسى أن "المبدع إنسان ينمو وتنمو تجاربه كشجرة تغرسها صغيرة ومع تقادم الأيام تكبر وتعطي ثمارا ناضجة حيث تبدأ التجربة في الأغلب مثالية لكنها تتماس مع الواقع والخبرات.. فتنضج الرؤية ولربما تتغير.
ويشير الى أن "بعض عباقرة الأدب قضوا صغارا مثل كيتس وأبو الشابي" رائيا أن الإبداع "غير مرتبط بالعمر تماما وانما بالقدرة على رؤية الجمال فالمسألة مرتبطة بالموهبة التي تظل بحاجة لمزيد من الاكتمال وطبيعة لحياة النمو فلا بد اذن من التغير الناجم عن هذا."
ويضيف لو أنه "امتد العمر بكيتس ربما لما غير من موقفه حين وصف الحياة بأنها مثل قطرة الندى مهما طال العمر" إذ ستظل الحياة في النهاية القريبة والبعيدة قطرة ندى"ناصحا الأدباء الشبان "ان يقدموا ولا يتراجعوا وليقدموا جمالا وابداعا لم نره من قبل؛ ذلك ان الجيد يبقى اما الزبد فتجلوه المياه."
ويعتبر الشاعر أحمد ابو سليم الإصدار الأول بالنسبة للشاعر أو الكاتب بمثابة "الابن البكر مهما اختلفت حوله الأراء؛ فهو التأريخ الحقيقي لبداية المبدع، منه يبدأ العد صعودا أو هبوطا، ويعتبر مسطرة القياس التي تقاس عليها أعمال المبدع فيما بعد."
ويضيف أن "ساحات الأدب شهدت ولادة مبدعين أحدثت إصداراتهم الأولى دويا كبيرا وثار حولها جدل عنيف، وأكدت على ولادة مبدع من نوع خاص، لنجد فيما بعد هذا المبدع غير قادر على تجاوز نفسه فتراه يتراجع ببطء وصولا إلى السقوط، ويظل يتغنى بإصداره الأول باقي عمره."
ويتابع بأنه على النقيض من ذلك "نجد مبدعا يتبرأ من إصداره الأول لأنه يشعر بأنه قطع شوطا

طويلا بين إصدارين ما يجعله يشعر أن إصداره الأول لا يعبر عن حقيقة قدراته الفنية التي يكون قد اكتسب معظمها بعد صدور عمله الأول مستفيدا من أخطائه."

وعلى الصعيد الشخصي يقول إن "التأني في النشر هو ضرورة لكي لا يقع الشاعر أو المبدع في "مطب" الندم، لأن ما ينشر ورقيا يصبح وثيقة للتاريخ لا نستطيع التخلص منها أبدا مهما فعلنا."

ويكشف" لقد أطلت الانتظار والتفكير قبل نشر كتابي الأول، كنت سأنشر مجموعة قصص قصيرة العام 1992 وعدلت عن ذلك، ثم فكرت بنشر رواية العام 2000 وعدت لأعدل عن الفكرة لأنني لم أكن مقتنعا تماما بأن المادة التي سأنشرها قد تثير الاهتمام، لذلك قمت بنشر ديواني الأول العام 2005 بعد تفكير طويل، واستشارة الكثيرين خوفا من أن أكون متسرعا في النشر."

ويضيف "لاقى الديوان قبولا جيدا مما شجعني لطبع الديوان الثاني في العام الذي يليه" معتبرا أنه تبقى مسألة العمل الأول "مسألة جدلية بين المبدعين، لكن لا شك بأن العمل الأول سيبقى دائما هوية المبدع التي تكشف عن قدراته واتجاهاته وتكرس له مكانا ما في سلم الإبداع، فإما أن يصعد، وإما أن يهبط، ذلك يصبح مرهونا بالمبدع نفسه."

jamal.qaisi@alghad.jo